الفائدة الحادية والخمسون:

أحوال الإنسان مع الخطيئة، وطريقة علاجها

الحمد لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيْرًا، أَمَّا بَعْدُ:

الإنسان بطبيعته خطاءٌ إما بقلبهِ، أو بلسانهِ، أو بجوارحهِ، أو بجميعها، ولا يسلم من ذلك إلا من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ.

والذنوب، والمعاصي، والأخطاء حين تتراكم على الإنسان تؤذيه أشد من تكالب الأعداء عليه، ويُهزم الإنسان من نفسه أكثر من أن يهزم من غيره، فقد لا يسلط عليك العدو الظاهر إلا بسبب العدو الباطن، وهي نفسه وكم كنا نسمع من شيخنا مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما نخاف على دعوتنا إلا من أنفسنا.

قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [الشورى:٣٠].

وهذا فقه دقيق يعلمه من بصَّره الله عَزَّوَجَلَّ بعيب نفسه، حتى قال بعض السلف: إني لأعرف خطيئتي في خُلقِ امرأتي، وبعضهم يقول: في خلق دآبتي، فإذا كان طائعًا لله عَزَّوَجَلَّ سُخِّرَت له دآبته وامرأته على أحسن حال، وإذا وقع في معصية ربما يخرج من بيته، وهو على حال طيب، وما يرجع إلا وقد ضاق الحال بينه وبين أهله، وإذا ركب دآبته نفرت، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} [فاطر:٣٥].

فالمعاصي، والذنوب عدو متربص ملازم للإنسان إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ،

وكثير من الناس قد يستقيم لسانه، ولكن الاعوجاج في قلبه.

وكثير من الناس قد تستقيم جوارحه ويكون الاعوجاج في لسانه.

وكثير من الناس ظاهر لسانه وجوارحه الخير، والفساد في قلبه، والله عَزَّوَجَلَّ مطلع على السرائر والظواهر، {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الأنعام:٧٣].

قَالَ تَعَالَى: {مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد:٤].

* ولو تأملنا ما وقع للصحابة رضوان الله عليهم في غزوة أحد مع كرامتهم، وعلو منزلتهم حيث قتل منهم سبعون، ومُثِّلَ ببعضهم، وجرح النبي ﷺ، وكُسِرَت رباعيته، وهُشِّمَ المغفر على رأسه، والسبب؟ ما قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: { وَعَصَيْتُمْ } [آل عمران:١٥٢].

كما قَالَ تَعَالَى: { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران:١٨٢].

لم تكن معصيتهم فاحشة، لم تكن معصيتهم أخذ مال الناس بالباطل، لم تكن معصيتهم سبٌّ، وشتمٌ، ولعنٌ، لم تكن معصيتهم سماع الأغاني، والمزامير، والدفوف للرجال، ومشاهدة التلافز، لم تكن معصيتهم اختلاطهم بالنساء، وتعاطيهم للشرور، والآثام، كما هو حال الناس الآن إلا ما رحم ربي وقليل ما هم، كانت المعصية من بعضهم تأولًا، أمرهم النبي ﷺ أن يكونوا في الجبل الذي يسمى بجبل الرماة، وأمرهم أن لا ينزلوا من الجبل، وأن لو تخطفتهم الطير،

فبينما هم على ذلك الحال إذ رأوْا النصر للمسلمين، فأرادوا النزول، فقال لهم أميرهم: ألم يقل رسول الله ﷺ كذا؟، فقالوا: الغنيمة الغنيمة، ونزلوا من الجبل فكانت بعد ذلك المعركة على المسلمين، بعد إن كانت للمسلمين.

{إِذْ تَحُسُّونَهُم}، والحس يكون من القفى، كان الكفار قد شردوا هاربين، والمسلمون يتابعونهم بالسيوف، فلما نزل هؤلاء النفر مخالفة لأمر رسول الله ﷺ رجع الأمر على المسلمين وقتل سبعون، وحصل ما تقدم ذكره بسبب ما ذكره الله: { وَعَصَيْتُمْ }.

فإذا كان الأمر حصل لهؤلاء الكرماء، الفضلاء، الصفوة مع اجتهاد منهم، فكيف بنا؟! ونحن نتعاطى معاصي ظاهرة، من منا يستطيع أن يزكي نفسه؟ أحسننا حالًا الذي ما يتعاطى الفواحش العظيمة، وربما فسد قلبه بالحسد، والحقد، والغل، والرياء، والعجب، والتطاول، والتفاخر، ورؤية نفسه، مصيبة!، مصيبة! أن الإنسان تُذْهِبُهُ ذنوبه، مصيبة والله! لو لم يكن إلا رؤية النفس.

حتى ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالًا قال: لو أن أحدهم قام الليل أجمع، والآخر نائم، ثم أصبح القائم متطاولًا على النائم، لكان نومه أفضل له من قيامه؛ لأن الذي أقامك الله فاشكر ربك واحمده على ذلك بترك رؤية النفس، ولا تتطاول على أحد، الله أعلم استجاب لك أم لم يستجب، قبلك أم لم يقبلك.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ**»(١).

وهكذا الفخر على الناس، من أنت يا أخي؟! وما أنت؟! حتى ترى نفسك

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٩٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بالمرتبة العَلِيَّة التي لا تُبلغ؟ نحن مساكين لولا ستر الله علينا.

وحالنا كما قال الأول:

والله لو علموا قبيح سريرتي ❁❁❁ لأبى السلام علي من يلقاني

* ولذلك كان من الدعاء: «**نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»(١).

فإذا سلم من هذه الأمراض القلبية؛ كم في اللسان من أمراض: الغيبة، والنميمة، والكذب، والبهت، الوعد ثم بعد ذلك الخلف، والسب، والشتم، واللعن، فكم للسان من ذنوب، ومعاصي تؤدي بالإنسان إلى الموارد، كلمة! يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»(٢).

فكيف بكثرة الكلام؟ إذا كان هذا الحال مع من ذنوبه هذه، فما بالك بساب الله، وساب رسول الله ﷺ، وساب دين الله، والمستهزئ بحملة الدين؛ فهذا كافر، قَالَ تَعَالَى: {أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة:٦٥-٦٦]، أتظن أن هؤلاء النفر الذين كفَّرهم الله عَزَّوَجَلَّ، وأخبر بحالهم سبوا الله جهارًا كما يفعله بعض الاشتراكية، والبعثية ومن إليهم من الحداثية، والعلمانية، أصحاب القلوب المريضة، والفطر السقيمة؟ لا.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٢)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هل سبوا رسول الله ﷺ وتنقصوه ظاهرًا كما هو حال كثير من حيوانات الأمة؟ لا.

إذًا ما الذي حصل منهم، حصل منهم أن طعنوا في الصحابة رضوان الله عليهم، بماذا؟

يذكر أهل السير والتفسير أنهم، قالوا: ما رأينا أسمن بطونًا، ولا أجبن عند اللقاء من أصحاب محمد ﷺ، فأنزل الله: {أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة:٦٥-٦٦]، ثم قال: {إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [التوبة:٦٦].

فتاب الله على بعض من تاب توبة نصوحًا، وعذب الله عَزَّوَجَلَّ من مات على ذلك الاعتقاد السيء الفاسد في صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فإذا سلم الإنسان من لسانه، ومن يسلم! إلا من رحم الله.

اللسان آفته آفه، للكلام شهوة كشهوة الطعام والشراب، شهوة، تجد الإنسان إذا قرأ القرآن تعب، وإذا سبح تعب، وإذا حاضر تعب، وإذا نصح تعب، لكن إذا جلس مع واحد في مجلس غيبة ونميمة يمكن ساعة، ساعتين، ثلاث، يجد أن المجلس لذيذ، وأنَّ الوقت ما عليه حسرة، وهكذا نسأل الله السلامة.

وأما الجوارح، شرورها كثيرة لا تقل عن سابقتها السرقة، والنهبة، والزنا، واللواط، والربا، والمشي إلى الحرام، وكم لها من المعاصي، والشرور.

فإن لم يسلمك الله عَزَّوَجَلَّ مُعرضٌ لشرور عظيمة، فيا عباد الله علينا أن نعالج أنفسنا، فإن الإنسان إذا علم أنه مريض سهل علاجه، وإذا ظن أنه صحيح لم ينفع معه العلاج.

انظر إلى أصحاب الوسواس القهري قل أن يتعالج أحدهم؛ لأنه يرى نفسه عاقلًا، ويرى نفسه أفهم من غيره، ويرى نفسه أنه الكل في الكل، ويأبى العلاج، شاهدنا من هذا المثل أن الإنسان إذا علم أنه مريض تعالج، لكن المشكلة الذي لا يعلم أنه مريض، وجمهور الأمة الآن ما يعلم أنه مريض، أذا تأملته في شكله، في بيته، في طريقه، في حاله مع نفسه، مع زوجه مع أبنائه، مع جاره، مع أمه، مع أبيه، مع خاله، مع عمه، مع صاحبه، وجدته قد ابتلي بكثير مما يسوء به الحال، وإذا كلمته قال: أنا وأنا، ما يرى لنفسه قصورًا هذه مصيبة، وهذا لم يعلم أنه مريض فكيف يُعالج!.

كان الصحابة رضوان الله عليهم يتحرجون من الذنب ويبادرون بالتوبة، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود:١١٤] فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: «**لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ**»(١).

وعَنْه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ، لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا دَعَاهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ: {أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود:١١٤] فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: «**بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً**»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٦٣).

هذا رجل علم أنه أصاب شيئًا يخالف الشرع، فبادر إلى التوبة، والرجوع إلى الله، أما جمهور الأمة الآن ما عنده هذا.

* فيا عباد الله نحتاج أن نراجع أنفسنا مع الله، ونعلم أننا نُخطئ بالليل والنهار، والاستمرار عليه خطر، فالعلاج ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**»، - والخطأ سبب لدمار الأمم والشعوب، فما العلاج؟ -، قَالَ: «**وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**»(١).

استغفروا الله يغفر لكم، وعودوا إلى الله يعفو الله عنكم، قَالَ تَعَالَى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه:٨٢].

فنسأل الله السلامة والعافيه، نسأل الله أن يتوب علينا، ويجنبنا الشرور والآثام.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.